

ملاح الدلالة الصّوتية عند الفلاسفة المسلمين

Features of the phonological significance of Muslim philosophers

د. نصيرة شيادي

(جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان)

Nacera83@hotmail.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2020/12/01	2020/08/31	2020/08/05

مُلَخَّصُ البَحْثِ

تمثل الدلالة حجر الزاوية في بنية اللغة الإنسانية؛ لأنها تُعادل القيمة النفعية للغة على مستويها الإبلاغي والجمالي، وقد كان الفلاسفة المسلمون على وعيٍ كامل بهذه القيمة الاستثنائية لعنصر الدلالة في بنية اللغة، ولكن الأقلام والأنامل كانت تتجه صوب اللغويين في كل مرة يُذكر فيها البحث الدلالي. ونحن من خلال هذه المقالة سنحاول أولاً أن نبين أن موضوع علم الدلالة ليس حكراً على اللغويين دون الفلاسفة المسلمين؛ إذ أنّ قضية الدلالة وعلاقتها بالمعنى من ضمن اهتمامات الفلاسفة؛ إذ تناولوها لصلتها الوثيقة بالألفاظ والتفكير هذا من جهة، ومن جهة أخرى سنورد ملاح التفكير الدلالي الصوتي عند الفلاسفة المسلمين من خلال أقسام الدلالة الصّوتية مبرزين معالم التميز والخصوصية في معالجة كل ما له علاقة بهذه الأخيرة. الكلمات المفتاحية: الدلالة الصوتية؛ الفلاسفة المسلمون؛ الصوت؛ الدلالة الطبيعية.

Abstract

Significance represents the cornerstone of the structure of the human language, because it is equivalent to the utilitarian value of language at both the informative and aesthetic levels, and Muslim philosophers were fully aware of this exceptional value of the significance element in the structure of the language, but pens and fingers were moving towards linguists every time the semantic research was mentioned. Through this article, we will first try to show that the subject of semantics is not exclusive to linguists without Muslim philosophers, as the issue of semantics and its relationship to meaning is among the interests of philosophers, as they dealt with it in relation to the close relevance of words and thinking on the one hand, and on the other hand we will mention the features of semantic vocal thinking when Muslim philosophers highlight the features of excellence and privacy in dealing with everything related to phonemic significance.

Keywords: Phonological significance; Muslim philosophers; phoneme; natural connotation.

1 . مقدمة:

لم يكن اللغويون في حقيقة الأمر هم الرواد السبّاقين إلى مراتع علم الدلالة الخصبة؛ بل سبقهم إليه الفلاسفة وعلماء النفس الذين نظروا إليه على نحو خاص. ويؤكد أحد الباحثين أنّ البحث في قضايا الدلالة برمتها خلافا لقضايا الصوت والصرف والنحو هو مجال فلسفي صرف، وأنّ الفلاسفة هم أول من تناول هذه القضايا منذ ازدهار الحضارة اليونانية، وأنّ اللغويين استنادا إلى هذه المعطيات التاريخية هم المتطفلون على مجال البحث الفلسفي.

وعلى الرغم من كون البحث الدلالي يمثل قاسما مشتركا بين الفلاسفة واللغويين وعلماء النفس؛ فإنّ كلا منهم تناول الجانب الدلالي من زاوية مغايرة" فالألفاظ لا تتصلها الوثيق بالتفكير كانت ولا زالت مجالا هاما للدراسات الفلسفية، وهي لصلتها بالعقل والعاطفة يتناولها أصحاب علم النفس، ولكنها قبل هذا وذاك عنصر من عناصر اللغة؛ ولذا يعرض لها اللغويون أيضا في بحوثهم، ويتناولونها من زوايتهم الخاصة وإن كانت دراسات كل هؤلاء من أهل العلم تتشابك حدودها وتتقارب في بعض نواحيها حين تعرض للألفاظ ودلالة الألفاظ"¹ إذن علم الدلالة تتقاسمه عدة فئات من العلماء، ولكن الإشكالية التي تطرح نفسها في هذه المقالة هي: هل عرف الفلاسفة المسلمون الدلالة الصوتية خاصة وأنّ الأقلام والأنامل كانت تتجه إلى اللغويين في كل مرة يُذكر فيها البحث الصوتي عموما والدلالة الصوتية على وجه الخصوص؟ وهل أدرك الفلاسفة أقسام الدلالة الصوتية والغرض من هذه الأخيرة؟

أدرك الفلاسفة المسلمون كنه علم الأصوات، وبالتالي طبعي جدا أن يدركوا كنه الدلالة الصوتية، ولامح الدلالة الصوتية بارزة من خلال القضايا التي عرض لها الفلاسفة المسلمون (النبر، والتنغيم) وبالتالي؛ فإنّ الهدف من وراء هذه الورقة البحثية هو إزالة الغبار عن جهد الفلاسفة المسلمين المغمور في حقل الدلالة الصوتية هذا من جهة، ومن جهة أخرى إبراز ملامح التميز والخصوصية في معالجة قضايا الدلالة الصوتية. ولمعالجة حيثيات هذه القضية سأسير وفق منهجية تبتدئ من الوقوف عند الصعوبة والعنت الذي لقيه الفلاسفة المسلمون بولوجهم عالم الدلالة ومن ثمة نعرف الدلالة الصوتية وأقسامها محاولين الوقوف عند أغراض هذه الأخيرة.

2 . علم الدلالة والفلسفة:

تُعَدُّ قضية الدلالة وعلاقتها بالمعنى من ضمن اهتمامات الفلاسفة؛ إذ تناولوها لصلتها الوثيقة بالألفاظ والتفكير، فعلم الدلالة مرتبط بالفلسفة ولا سيما عند الفلاسفة ومنهم الفارابي (ت 339هـ) إذ بين ذلك في قوله: "وينبغي أن تؤخذ المعاني الفلسفية إمّا غير مدلول عليها بلفظ أصلا بل من حيث هي معقولة فقط، وإمّا أن أخذت مدلولاً عليها بالألفاظ فإنما ينبغي أن تؤخذ مدلولاً عليها بالألفاظ أي أمة اتفقت واحتفاظ فيها عندما يُنطق بها وقت التعليم لشبهها بالمعاني العامة التي منها نُقلت ألفاظها... فلذلك رأى قوم أن لا يعبروا عنها بالألفاظ أشباهها بل رأوا أنّ الأفضل هو أن تُجعل لها أسماء مُخترعة لم تكن قبل ذلك مُستعملة عندهم في الدلالة على شيء أصلا، مُركبة من حروفهم على عاداتهم في أشكال ألفاظهم"²

لقد واجه الفلاسفة المسلمون عننا كبيرا وصعوبة حين ولجوا عالم البحث الدلالي، يقول إبراهيم أنيس: "عرض أهل الفلاسفة والمنطق في بحوثهم إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها، وصادفوا في شأنها بعض العنت والمشقة حين حاولوا أن يصبّوا تأملاتهم وخواطرهم في ألفاظ محددة للدلالة، فصالوا وجالوا بين الجزئي والكلي، والمفهوم والمصدق، وعقدوا الفصول الطوال في التعريف وحدوده، ومحاولة جعله جامعا مانعا"³

وفي سياق التفريق بين التناول المنطقي الفلسفي للألفاظ ودلالاتها، وبين التناول اللغوي للموضوع ذاته يؤكد ابن سينا (ت 428هـ) أن "النظر في أي لفظ هو موضوع دالا على معنى كذا، وأي كتابة هي موضوع دالة على معنى كذا وأثر كذا، فذلك لصناعة اللغويين والكتاب، ولا يتكلم فيها المنطقي إلا بالعرض، بل الذي يجب على المنطقي أن يعرفه من حال اللفظ هو أن يعرض حاله من جهة الدلالة على المعاني المفردة والمؤلفة ليتوصل بذلك إلى حال المعاني أنفسها من حيث يتألف عنها شيء يفيد علما بمجهول فهذا هو صناعة المنطقيين"⁴ ويشير ابن سينا في سياق آخر إلى المنهج الذي ينبغي على المنطقي أن يتبعه في تعامله مع الألفاظ ودلالاتها، فعليه أن يبتعد قدر المستطاع عن دلالات الألفاظ الخاصة ببعض القبائل ولهجاتها، وأن يركز على الدلالة المطلقة العامة غير المقيدة بلهجة من اللهجات، يقول الشيخ الرئيس: "ولأن بين اللفظ والمعنى علاقة ما، وربما أثرت أحوال في اللفظ في أحوال المعنى فلذلك يلزم المنطقي أيضا أن يراعي جانب اللفظ المطلق من حيث ذلك غير مقيد بلغة قوم دون قوم"⁵

ما نستشفه من المنهج الذي اقترحه ابن سينا للبحث في علم الدلالة أن الفلاسفة أدركوا الدلالة بأنواعها بدليل قول ابن سينا بوجوب البحث في الدلالة المطلقة ومن ضمنها الدلالة الصوتية، فما مفهوم هذه الأخيرة؟

3. الدلالة الصوتية:

الدلالة لغة: من الفعل (دلّ) عليه وإليه دلالة: أرشد، ويقال: دلّه على الطريق ونحوه: سدّده إليه، فهو دالّ، والمفعول: مدلول عليه وإليه، والدلالة: الإرشاد، وهي ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، والجمع: دلالات، ودلالات⁶ واصطلاحا: هي ما تفرزه طبيعة الأصوات من إيقاع حين تضمّ لبعضها وفق نسق تركيبّي، لإنتاج بيان لغويّ معيّن⁷.

وقد أشّر قدامى القوم إلى أن بعض الأصوات تحمل سمات دلالية خاصة بها، مما يكسبها القوة، والضعف. وفي النص القرآني ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾⁸ أن الخاء (خ) لغلظها لما هو قوي وشديد، والحاء (ح) لما هو رقيق وضعيف ومثلها (خضم، وقضم) و(سعد، وصعد)⁹ وقد أكّد بعض اللغويين المحدثين على القيمة التعبيرية للحروف، وقدرتها الإيحائية على وضوح الرؤيا الدلالية،¹⁰ ويرى عبد الله العلايلي: أن الأبجدية العربية تختصّ بتباين معانيها.¹¹

4. أقسام الدلالة الصوتية:

تنقسم الدلالة الصوتية إلى قسمين هما: الدلالة الصوتية الطبيعية والدلالة الصوتية التحليلية.

1.4. الدلالة الصوتية الطبيعية:

نعني بها الأصوات الصادرة عن مظاهر الطبيعة المختلفة، فضلا عن أصوات الإنسان والحيوان وما لها من أدوار في تحديد المعنى؛ إذ أن لها علاقة بنظرية المحاكاة (تقليد أصوات الطبيعة) في نشأة اللغة أو ما يعرف

بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول. فالفارابي حدد مدارج الفكر الدلالي عند الإنسان، فرتّب الدوال بحسب مدارجها ورسمها عبر فكرته: أولاً عن الإشارات، وثانياً: عن الأصوات والزعقات، وثالثاً: عن الحروف المؤلفة عن الأصوات، ورابعاً: عن الألفاظ المركبة بموالات الحروف، وخامساً: عن الخطوط الدالة على الألفاظ¹² ونجده في قوله: "وَأَنَّ الألفاظ إنما تدلّ أولاً على ما عليه الأمور في العقل من حيث هي معقولة ومتى حدث للعقل فيها فعل خاص، وأنه لا يُنكر أن تكون الأشياء من قبل أن يحدث فيها للعقل فعل خاص ومن حيث كانت هي أقرب إلى المحسوس قد كان يدل عليها إما بإشارات وإما بحروف وإما بأصوات وزعقات، أو بألفاظ غير مُتأمل أمرها ولا مُدبرة من أنحاء دلالاتها فحينئذ إما أن لا تكون تلك ألفاظ وإما أن تكون غير كاملة"¹³

إذ يبيّن الفارابي أنّ الألفاظ دالة على معقولات كلية، لها أشخاص محسوسة، فالتصويت دال على معقولات كلية فيفهم من التصويت دلالة على معقول، ونجده في قوله: "ولأنّ هذه الحروف إذا جعلوها علامات أولاً كانت محدودة العدد، لم تف بالدلالة على جميع ما يتفق أن يكون في ضمائرهم. فيضطرون إلى تركيب بعضها إلى بعض بموالات حرف حرف، فتحصل في ألفاظ من حرفين أو حروف، فيستعملونها علامات أيضاً لأشياء آخر. فتكون الحروف والألفاظ الأولى علامات لمحسوسات يُمكن أن يشار إليها ولمعقولات تستند إلى محسوسات يمكن أن يشار إليها"¹⁴

وأشار الفارابي إلى علاقة الصوت بالمعنى في قوله: "والأصوات والنغم التي يستعملها الحيوان عند الانفعالات الحادثة فيها، ليست هي التي يستعملها الإنسان علامات في الدلالة على الأمور، أمّا تلك فهي بمنزلة الأصوات والنغم التي تُسمع من الحيوان والإنسان عند طربها فإنّ في طباع الحيوانات والإنسان إذا طربت أن تُصوّت نحو ما من التصويت، وكذلك إذا لحقها خوف صوّتت صنفاً آخر من التصويت، والإنسان إذا لحقه أسف أو رحمة أو غضب أو غير ذلك من الانفعالات صوّت أنحاء من الأصوات مختلفة، وأمثال هذه الأصوات والنغم إذا استعملت ربما حصل عنها انفعال ما أو ازدياده، وربما زال الانفعال أو انتقص"¹⁵

وبيّن الفارابي أنّ للألفاظ معاني كثيرة، كما أنّ للمعاني ألفاظاً كثيرة، إذ قال: "ثم يبيّن لنا شبه الألفاظ بالمعاني، ونحاكي بالألفاظ المعاني التي ليست تكون بها العبارة، فيطلب أن يجعل في الألفاظ ألفاظ تعمّ أشياء كثيرة من حيث هي ألفاظ، كما أنّ في المعاني معاني تعمّ الأشياء كثيرة المعاني"¹⁶ إذ جعل للفظ محاكاة في المعنى وهذا ما ورد عند إخوان الصفا (القرن الرابع الهجري) في تفريقهم بين الصوت والكلام؛ إذ عبّروا عنه بقولهم: "اعلم يا أخي أنّ الكلام هو صوت بحروف مقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة"¹⁷

فعلاقة الصوت بالمعنى وضّحها إخوان الصفا في قولهم: "ثم اعلم أنّ الكلام الدال على المعاني مخصوص به عالم الإنسان، وهو النطق التام بأيّ حروف كتب، والحيوان لا يشرك الإنسان فيه من الجهات المنطقية والعبارة اللفظية لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية، والحاجة فيها إلى ذلك لأنك تجد كثيراً من الحيوانات تُريد بأصواتها دفع المضار، وجذب المنافع تارة لأنفسها وتارة لأولادها مثل صياح البهائم إذا احتاجت إلى الأكل ومُنعت منه، وإلى شرب الماء وذيذت عنه، ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها، وما شاكل ذلك من الطيور التي تحاكي الإنسان، ومحاكاة القرد للإنسان في جميع أفعاله وأكثر أعماله"¹⁸

فالأصوات التي تحدثها الأشياء والحيوانات مكونة من هجاء واحد؛ إما ساكن لا يمكن النطق به ابتداءً، فيجلب له حرف متحرك توصلا للنطق به فيصير بناءً ثنائياً كما في (رن) فإنّ الهجاء الأصلي النون الساكنة التي تحكي صوت الرنين، ولما كانت ساكنة جُلب لها الراء فوُجد بناء (رن) وإما متحرك بحركة ممتدة يتولد عنها حرف لين، إما واو، أو ألف، أو ياء، كما هو في عواء الهر، فإنّ الهجاء الأصلي الميم المتحركة بحركة ممتدة تولد عنها الواو فوُجد البناء (مو)، والحال نفسها يمكن ملاحظتها في أصوات جميع الأشياء.¹⁹

وقسم إخوان الصفا الأصوات إلى أصوات خاصة بالحيوان سمّوها أصواتاً غير منطقية وأصوات خاصة بالإنسان سمّوها أصواتاً منطقية ثم قسّموا الأصوات المنطقية إلى دالة وغير دالة ويقصدون من (الدالة) أصوات حروف الهجاء قالوا: "والحيوانية أيضاً على ضربين منطقية وغير منطقية فغير المنطقية هي أصوات الحيوانات غير الناطقة " ²⁰ وأما " المنطقية فهي أصوات الناس وهي نوعان: دالة وغير دالة فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح وبالجملّة كل صوت لا هجاء له وأما الدالة فهي الكلام والأقاويل التي لها هجاء ²¹

فالصوت حسب إخوان الصفا يسمى بأسماء مختلفة مثل قول القائل صهيل الفرس، ونهيق الحمار، ونباح الكلب، وخوار الثور، وزئير الأود، ونعيب الغراب، وغير ذلك، وأما الصوت المخصوص به الإنسان فإنه يقال له كلام، ولفظ متكلم كقول القائل: فلان يتكلم بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك ²²

وبالتالي نستطيع القول أنه لو تمّ تفحص الكثير من الكلمات المأخوذة من حكايات الأصوات فسنجد أنّ منها ما جاء بمقطع مكرر مثل: الهرهرة والقرقرة، ومنها ما جاء بمقطع طويل مثل: المواء والخير والزفير، وهذه الكلمات الأخيرة وغيرها من ذوات المقاطع الطويلة لم ترد في ثبت لغوي مكررة، وليس لها أصل مكرر من جنسها، فكلمة خير مثلاً، وإن كان المعجم يوردها بصفة التكرير فإنّ هذا لا يجعلنا نسلّم بصحتها، فلو قلنا خرخر وصمتنا فإنّ السامع سينصرف ذهنه إلى خرخرة القط والنمر، أو الإنسان في النوم، وقد جاؤوا بالخير للماء لتوهمهم استطالة في صوت الماء وهو ينساب في المجرى.²³

وقد بيّن إخوان الصفا ماهية صوت الإنسان على أنه غرض مفهوم دال على معنى، وأصوات الحيوانات غير مفهومة، فالقوة المفكرة ترى في دلالة تصويتها حاجة كالأكل والشرب والنكاح.²⁴

استناداً لكلّ ما تقدّم نستطيع القول إنّ إخوان الصفا توسّعوا في جانب الدلالة الطبيعية، واختلفوا عن الفارابي في تصويرها؛ إذ بيّن الفارابي محاكاة اللفظ للمعنى . كما سبقت الإشارة إلى ذلك سابقاً .

وإذا عدنا إلى ما أدلى به ابن سينا في الفصل السادس من رسالته أسباب حدوث الحروف . بخصوص الدلالة الصوتية. والموسوم بالحروف التي قد تُسمع من حركاتٍ غير منطقية فإننا نجده قد ربط بين أصوات اللغة العربية وأصوات الطبيعة، فهو يتلمس وجوه شبه بين أصوات اللغة وبين ما نسمعه من أصوات في الطبيعة. فيصف كل حرف بما يشبه مما يصدر عن الطبيعة، فيقول عن (الخاء) مثلاً أنّها " تحدث عن حثّ كلّ جسم لين حثّاً كالقشر بجسم صلب " ²⁵ وعن (الغين) يقول: " تحدث عن غليانات الرطوبة في أجزاء كبار تندفع إلى جهة واحدة. " ²⁵ أما (الشين) فتحدث " عن نشيش الرطوبات في خلل أجسام يابسة نفوذا بقوة " ²⁵.

2.4 . الدلالة الصوتية التحليلية:

والمقصود بها تلك الدلالة الصوتية التي تتحقق جراء الإحلال بين الصوامت والصوائت (الحروف والحركات) المختلفة أي ما يُعرف بالفونيمات التركيبية، أو تلك التي تُستنبطُ من خلال مختلف الأداءات الصوتية التي اصطلح عليها بالفونيمات الثانوية باعتبارها ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة في الأداء الصوتي، وتُشارك في تنوع معاني الكلام مثلما تشارك فيه الأصوات التركيبية وذلك مثل النبر والتنغيم.

أ. دلالة الفونيمات التركيبية: (Sugmental phonemes) وتشمل الحروف (الصوامت) والحركات (الصوائت) يُطلق العلماء على الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة الصوت المقطعي الأولي أو الصوت التركيبي، ويشمل الصوت التركيبي ما يسمى بالسواكن والعلل وهي تُعدّ جزئيات صوتية تُستخدم في تركيب الحدث الكلامي. حيث تؤثر الصوامت والصوائت تأثيرا كبيرا في بيان معاني الكلمات، فدقة المعنى تتفق مع جرس الصوت المختار، وإذا عدنا إلى الفارابي في تقسيمه للحروف فهي عنده مصوطة وغير مصوطة، وهذه الأخيرة منها ما يمتد بامتداد النغم ومنها ما لا يمتد بامتداد النغم يقول: "والحروف غير المصوطة، منها ما يمتد بامتداد النغم ومنها ما لا يمتد بامتدادها، والممتدة مع النغم هي مثل: اللام، والميم، والنون، والهمزة، والعين، والزاي، وما أشبه ذلك، وغير الممتدة مثل: التاء، والdal، والكاف، وما جانس ذلك"²⁶

وتؤكد الدراسة الصوتية الحديثة أنّ بعض أصوات اللغة أوضح في السمع من البعض الآخر. وتبيّن من تجارب الدارسين أنّ صوت اللين vowel في كلمة مثل Born يعدّ أوضح أصوات اللين ولا يُعادلّه أو يقترب منه في الوضوح إلا ذلك الذي في الكلمة Barn.²⁷

ويرتّب إبراهيم أنيس الأصوات تصاعديا من حيث الوضوح السمعي، فيعدّ الأصوات الأنفية (الميم والنون) والراء واللام، وأصوات اللين الضيقة (الضمة والكسرة ومعهما الواو والياء) أقل وضوحا في السمع من أصوات اللين المتسعة (الفتحة المفخمة وألف المد)؛ إذ تُعدّ هذه الأخيرة أوضح الأصوات جميعا.²⁸

فالصوائت لها قيمة دلالية تتجسد في إيصال المعنى، ويُعطي الفارابي تفسيراً لاستعمال الصوائت في باب حروف السؤال في قوله: "فإنّ النداء يُقتضى به أولا من الذي نودي للإقبال بسمعه وذهنه على الذي ناداه منتظرا لما يخاطبه به بعد النداء. وهو نفسه لفظة مفردة قرّن بها حرف النداء. وإنما يكون حرفا من الحروف المصوطة التي يمكن أن يمدّ الصوت بها إذا احتيج به إلى ذلك لبعده المنادي أو لثقل في سماعه أو لشغل نفسه بما يذهله عن المنادي"²⁹

ب. دلالة الفونيمات غير التركيبية: (Suprasegmental Phonemes) وتشمل: النبر والتنغيم.

الفونيمات غير التركيبية أو ما يُعرف عند فيرث (Firth) بالبروسودات (Prosodies) هي نوع من أنواع الدلالة الصوتية، وهي تلك المظاهر الصوتية التي تُصاحب الكلمات المتصلة أو الجمل، فيكون لها دور في المعنى، وأهم هذه المظاهر النبر (Stress) والتنغيم (Intonation)

إنّ التأكيد على القيمة التعبيرية للحروف ومعانها، وقدرتها الإيحائية على وضوح الرؤيا الدلالية، وتوزعها بين السعة، والقطع، والتوكيد، والتشديد، والهمس، والمفاجأة، والخفاء، والغلظة، والرخاوة، والجهر، والهمس، لا تخلو من تناسب طبيعي يوجّه مستويات الدلالة صوب الثنائية الصوتية. والدلالة الصوتية وإن أسهم الحرف

بشكل واسع في مدّ محتوياتها، إلّا أنّ التتابع الصوتي وتنوعاته داخل تيار الكلام يوجهان بنيتها، وهي تخضع لما يمنحها المتكلم من قدرة، وديناميكية داخل التركيب؛ ذلك أنّ الصوت المفرد لا قيمة له مستقلا عن السياق، وإن كان يمثل الأصل في الدلالة. ويؤشر أحد اللغويين المعاصرين هذه الحقيقة قائلاً: "المعنى والصوت كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفرقة"³⁰

فدلالة الفونيمات غير التركيبية التي يُعنى بها علم الأصوات التشكيلي تتناول أصوات اللغة العربية وهي مشكلة في نسق بنائي يُكوّن كلمات منطوقة دالة تُشكّل جملاً وتراكيب دالة، والكلمات والعبارات والجملة تختلف دلالتها على وفق الطريقة التي تُنطق بها منغمّة تؤدي برفع الصوت أو خفضه، أو نبره على مقطع من ذلك التركيب، فالنبر والتنغيم يُحدد كل منهما الجملة بدلالة خاصة تختلف باختلاف طبيعة التنغيم أو حدود النغم؛ إذ عدّ العرب التنغيم (جرس الكلام) فضلاً عن أنّ النبر عُنصر تحديد المعنى؛ إذ هو ارتفاع الصوت، إذ يؤدي وظيفة دلالية إضافية عند نُطق التراكيب تسمى اليوم نبر الانفعال.³¹

فالكلام له تأثير كبير في المعنى؛ إذ يحمل المعاني في نفوس البشر، ووضحه إخوان الصفا في قولهم: "فأما النطق فإنّ الموضوع فيه جواهر النفس الجزئية الحيّة، وتأثيراته فيها روحانية مثل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والمدح والهجر، والدليل على ذلك ما يتبيّن لنا من تأثيرات الكلام في النفوس، مثل ما يرى من تأثيرات الأجسام بعضها في بعض... فهذا حكم الكلام والأقوال في النفوس نوعان: مُصلح ومُفسد؛ فالمصلح كالمدح والثناء الجميل الباعثين للنفوس على مكارم الأخلاق، ومثل المواعظ والمواعيد الزاجرين للنفوس عن الأفعال القبيحة وعن مساوئ الأخلاق"³²

وبناء عليه، فالفلاسفة المسلمون أدركوا دلالة الفونيمات غير التركيبية في توجيه الدلالة ممثلة في النبر والتنغيم.

أ. النبر:

النبر لغة: يدل أصله اللغوي على الرفع والعلو، ونبر الغلام: صاح، ورجل نَبَر: فصيح جهير، والنبر في الكلام: الهمز أو قريب منه.³³ والنبر اصطلاحاً: هو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد.³⁴

وابن سينا عدّ نغم الجملة ذا وظيفة تمييزية من حيث الدلالة الإبلاغية فيما يسميه (النبرة) يتحدّد طابع الجملة إن كان نداءً أو تعجباً أو سؤالاً،³⁵ بل إنّ للنبرة دوراً وظائفياً على صعيد البنية النحوية أحياناً ولا سيما "في أقسام اللفظ المركب فيجب أن لا تحلّل هذه الأقاويل الطويلة إلّا النبرات التي لا يُنغم فيها وإنّما يُراد بها الإمهال فقط وربما احتيج أن تخلّل الألفاظ المفردة إذا كانت في حكم القضايا خصوصاً حيث تكون على سبيل الشرط والجزاء كقولهم: لما التمس: أعطيت فيقول: بين (التمس) وبين (أعطيت) نبرة إلى الحدة وهو عند الشرط وبعقب (أعطيت) نبرة أخرى إلى الثقل وهي للجزاء"³⁶

ويتوصّل ابن سينا إلى الوظائف الدلالية للنبر المتمثلة في إظهار الأحوال النفسانية للمتكلّم من حيرة أو غضب أو إظهار حالات التكلّم عموماً التي يتوقف عليها أن يُصبح الخبر استفهاماً والاستفهام تعجباً نسمعه يقول: "ومن أحوال النغم: النبرات وهي هيئات في النغم مدّية غير حرفية يبتدئ بها تارة وتخلل الكلام تارة، تعقب النهاية تارة وربما تُكثّر في الكلام وربما تُقلل ويكون إشارات نحو الأغراض، وربما كانت مطلقة للإشباع ولتعريف القطع ... ولتفخيم الكلام وربما أعطيت هذه النبرات بالحدة والثقل هيئات تصير بها دالة على أحوال

أخرى من أحوال القائل أنه متحير أو غضبان أو تصير به مستدرجة للمقول معه بتهديد أو تضرع أو غير ذلك وربما صارت المعاني مختلفة باختلافها مثل أنّ النبرة قد تجعل الخبر استفهاما والاستفهام تعجبا وغير ذلك وقد تُوردُ للدلالة على الأوزان والمعادلة * وعلى أنّ هذا شرط وهذا جزء وهذا محمول وهذا موضوع.³⁷

ب. التنغيم:

التنغيم لغة: يدلُّ أصله اللّغوي على النغمة وهي جرسُ الكلام و حسنُ الصّوت بالقراءة وغيرها وهو النغم. وتنغمّ الإنسان بالغناء ونحوه.³⁸

والتنغيم اصطلاحاً هو: "تتابعات مطّردة من مختلف أنواع الدّرجات الصوتية على جملة كاملة أو أجزاء متتابعة وهو وصفٌ للجمل وأجزاء الجمل وليس للكلمات المختلفة المنعزلة"³⁹

و بالتّالي هو قِمة الظواهر الصوتية التي تكسُو المنطوق كلّهُ؛ إنّهُ الخاصّة الصوتية الجامعة التي تلفّ المنطوق بآجمعه، فالتنغيم هو الكلّ في الواحد؛ إنّهُ ينتظم في أنثائه جملة الظواهر الصوتية الأخرى كالنّبر وليس التنغيم هو النّبر كما قد يظنّ بعضهم فالنّبر هو ضغط على مقطعٍ من المقاطع قصدٌ وُضوحه وهو بهذا الوصف عامل مهمٌّ من عوامل التنغيم.

ونغماتُ الكلام دائماً في تغيّرٍ من أداءٍ إلى آخرٍ ومن موقفٍ إلى موقفٍ ومن حالةٍ نفسيةٍ لأخرى.⁴⁰ فهو "جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجّبٍ واستفهامٍ وسُخريّةٍ وتحذيرٍ..."⁴¹

ويُشيرُ الفارابي إلى الوظيفة الدّلالية للتنغيم في قوله: "ومن فُصول النّغم الفُصولُ التي بها تصيّرُ دالّةً على انفعالاتِ النّفس، والانفعالات عوارضُ النّفس، مثل الرّحمة والقساوة والحزن والخوف والطّرب والغضب واللّذة والأذى، وأشباه هذه، فإنّ الإنسان له عند كلّ واحدٍ من هذه الانفعالات نغمة تدلّ بواحد منها على عارض من عوارض نفسه، وهذه إذا استعملت خيلت إلى السّامع تلك الأشياء التي هي دالّة عليها"⁴²

واهتدى الأصواتيون المعاصرون إلى نفس دلالة التنغيم التي توصل إليها الفارابي سابقا حيث يرون أنّ التنغيم يُستعملُ في حديثنا اليومي لتحقيق أغراضٍ شتى منها اللّغوية كالتمييز بين أنواع الجملة وأغراضٍ نفسية للدّلالة على مُيول المتكلّم المختلفة اتّجاه المستمع ومقدار ما يُكنّه من حبٍّ أو كراهية أو استعلاء أو احتقار أو ما شابه ذلك.⁴³

وفي تحديد دقيق منه يهتدي الفارابي إلى الوظائف الأدائية والدلالية الأربع للتنغيم يقول: "وسائرُ الأحوال الأخر، سوى التي وصفناها، أربعة، منها ما يُفيدُ السّامع اللّذّة وأنقُ المسموع ويكسبُ اللّحن بهاءً وزينةً. ومنها ما يوقعُ في النّفس تخيّلاتٍ أشياء على نحوٍ من التخيّلات التي لخصّ أمرها في الصّناعة الشعريّة. ومنها ما يُكسبُ الإنسان انفعالاتِ النّفس مثل الرّضا والسّخط والرّحمة والقساوة والخوف والحزن والأسف وما جانس ذلك. والرّابع هو الذي يُكسبُ الإنسان جودةً الفهم لما تدلّ عليه الأقاويل التي قرنت حروفها بنغم الألحان"⁴⁴

ويتحدّث الفارابي لمزيدٍ من الإيضاح من لدنّه عن أحوال النّغم الدالّة على انفعالاتِ النّفس قائلاً: "النّغم الانفعالية هي بالجملة ثلاثة أصنافٍ منها: ما يُكسبُ الانفعالات التي تُنسبُ إلى قوّة النّفس مثل: العداوة والقساوة والغضب والتهوّر وما جانس ذلك ومنها التي تُكسبُ الانفعالات التي تُنسبُ إلى ضَعْفِ النّفس وذلك مثل الخوف والرّحمة والجزع والجُبْن وما أشبه ذلك ومنها التي تُكسبُ المخلوط من كلّ واحدٍ من هذين الصّنفين

وهو التوسط⁴⁵

ومن جهته يربط ابن سينا الوظيفة الدلالية للتنعيم بمناسبة الانفعال وطبيعته وشدته، يقول: "ومنها الصنف المستعمل في النغم مثل: تثقيلها وتحديدها وتوسيطها وإجهاؤها والمخافتة بها أو توسيطها فإن للنغم مناسبة مع الانفعالات والأخلاق فإن الغضب تنبعث منه نغمة بحال والخوف تنبعث منه نغمة بحال أخرى، وانفعال ثالث تنبعث منه نغمة بحال ثالثة فيشبه أن يكون الثقل والجهر يتبع الفخامة والحاد المخافتة فتتبع ضعف النفس وجميع هذا يستعمل عند المخاطب إما لأن يتصور الإنسان بخلق تلك النغمة أو بانفعالها عندما يتكلم وإما لأن يتشبه نفس بما يناسب تلك النغمة قساوة وغضباً أو رقة وحلماً⁴⁶

وابن سينا أدرك الوظيفة النحوية والدلالية للتنعيم؛ فالجملة الواحدة قد تكون خبرية أو استفهامية والتنعيم هو الفيصل في الحكم للتمييز بين الحالتين وبذلك نستطيع عن طريق التنعيم أن نقرر نوع الأسلوب الذي ينتمي إليه الحدث الكلامي كالخبر أو الاستفهام أو التعجب.⁴⁷

وهذا الأمر لم يفت ابن سينا حيث أسند للنغم أو الثبرات دوراً وظيفياً يتمثل في إبراز انفعالات المتكلم وما يريد إيصاله إلى المستمع من معاني، كما أشار إلى الملاح التمييزية بين المعاني النحوية للنغم يقول: "وربما أعطيت هذه الثبرات بالحدة والثقل هيئات مستدرجة للمقول معه بهتديد أو تضرع أو غير ذلك وربما صارت المعاني مختلفة باختلافها مثل أن الثبرة قد تجعل الخبر استفهاماً والاستفهام تعجباً وغير ذلك وقد تورد للدلالة على الأوزان والمعادلة وعلى أن هذا شرط وهذا جزاء.⁴⁸

ومن جهته وضع ابن رشد وظيفة النغم في تحديد الدلالة نستشف ذلك من قوله: "وقبل أن نقول في الألفاظ فينبغي أن نقول في الأمور المستعملة مع الألفاظ على جهة المعونة في جودة التقسيم وإيقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود وهي التي جرت عادة المتقدمين أن يسموها الأخذ بالوجه وذلك أن هذه الأشياء لما كان من شأنها أن تُميل السامعين إلى الإصغاء والاستماع والإقبال على المتكلم بالوجه وتفرغ النفس لما يورده استعير لها هذا الاسم.⁴⁹

5. خاتمة:

إن بذور اللغويين في الدلالة الصوتية هي نتاج ما بدأ به الفلاسفة المسلمون، وقد ظهرت معالم التميز والخصوصية في الأقوال التي أوردوها وفي الطرح الصوتي لمسائل الدلالة الصوتية وفيما يأتي عرض لأهم النتائج التي تمخض المقال عنها:

. رغم الصعوبة والعنت الذي واجهه الفلاسفة المسلمون في ولوجهم حقل علم الدلالة إلا أن جهودهم الدلالية أثرت الفكر العربي والغربي على حد سواء.

. ما توصل إليه الفلاسفة المسلمون بخصوص العلاقة التي تربط الدلالة الصوتية الطبيعية بنظرية المحاكاة استثماره فيما بعد الباحثون بعدهم من أمثال ابن جني.

. لقد أدرك الفلاسفة المسلمون أقسام الدلالة الصوتية وحصروها في نوعين الدلالة الصوتية الطبيعية والدلالة الصوتية التحليلية.

. تتجسّد مظاهر الدلالة الصوتية في:

أ. دلالة حكايات الأصوات المسموعة (الدلالة الصوتية الطبيعية)

ب. دلالة الصوامت والصوائت.

ج. دلالة النبر والتنغيم.

. انقسام الدلالة الصوتية التحليلية إلى فونيمات تركيبية وأخرى غير تركيبية هو ما أقره اللغويون وعلماء اللغة القدماء والمحدثون.

. تؤثر الفونيمات التركيبية حروفا وحركات في بيان معاني الكلمات؛ فدقة المعنى تتفق مع جرس الصوت المختار. دلالة الفونيمات غير التركيبية ممثلة في النبر والتنغيم تؤثر بشكل مباشر في توجيه الدلالة، وتساعد في اللغة العربية على إكساب الكلمات معاني جديدة قد لا تتأتى بدون أحدهما.

. توصل الفلاسفة المسلمون إلى الوظائف الدلالية للنبر والمتمثلة في إظهار الأحوال النفسانية للمتكلم من حيرة أو غضب، أو إظهار حالات التكلم التي يتوقف عليها أن يُصبح الخبر استفهاما والاستفهام تعجبا كما توصلوا إلى الوظائف الدلالية للتنغيم المتمثلة في تحقيق أغراض شتى منها اللغوية كالتمييز بين أنواع الجمل، وأغراض نفسية للدلالة على ميول المتكلم المختلفة اتجاه المستمع ومقدار ما يُكنّنه من حب أو كراهية أو استعلاء أو احتقار.

إِحَالَاتُ الْبَحْثِ

1. إبراهيم، أنيس، 2004، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، ص 6
2. أبو نصر، الفارابي، 1986، كتاب الحروف، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، ص 159
3. إبراهيم، أنيس، دلالة الألفاظ، ص5
4. ابن سينا، 1970، العبارة من الشفاء، تحقيق: محمود الخضيرى، دار الكتاب العربي، القاهرة، دط، ص 5
5. ابن سينا، دت، الإشارات والتنبيهات، شرح: نصير الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص 131
6. إبراهيم، مصطفى وآخرون، دت، المعجم الوسيط، دط، مادة (دل)
7. عبد القادر، عبد الجليل، 1998، علم الصرف الصوتي، دار أزمّة، دط، ص 150
8. سورة الرحمن الآية 66
9. عبد القادر، عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، ص151
10. أحمد فارس، الشدياق، دت، الساق على الساق فيما هو الفارياق، مصر، دط، 1/ 2.
11. أسعد علي، العلايلي، 1968، تهذيب المقدمة اللغوية، لبنان، دط، ص 63. 64
12. الفارابي، كتاب الحروف، ص 74. 75
13. المصدر نفسه: ص 74

14. المصدر نفسه: ص 137
 15. أبو نصر، الفارابي، دت، كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق وشرح: غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير: محمود أحمد الحفني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1 / 63 . 64.
 16. أبو نصر، الفارابي، كتاب الحروف، ص 140
 17. إخوان الصفا، 1992، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، تقديم: عليوش عبود، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغبة، الجزائر، دط، 290/3
 18. المصدر نفسه: 115/3
 19. صالح سليم عبد القادر، الفاخري، دت، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، دط، ص 67.
 20. رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء 252/1 . 272/3
 21. المصدر نفسه: 252/1
 22. الرسائل 3 / 113 . 114
 23. صالح سليم عبد القادر، الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، ص 68
 24. أبو السعود أحمد، الفخراي، 1991، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، ص 191 . 192
 25. ابن سينا، 1403هـ، 1983م، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق: محمد حسان الطيان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط1، ص 93 . 94
 26. أبو نصر، الفارابي: الموسيقى الكبير 2 / 1072
 27. إبراهيم، أنيس، 1970، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، مصر، دط، ص 28.
 28. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
 29. أبو نصر، الفارابي، كتاب الحروف، ص 162 . 163
 30. لاسل، إبركرومي، 1954، قواعد النقد الأدبي، ترجمة: محمد عوض محمد، دط، ص 39.
 31. هادي، نهر، 2007، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، دط، ص 71 . 73
 32. أبو السعود أحمد، الفخراي، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، ص 208
 33. ابن فارس، 1979م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مادة (نبر) 380/5 وينظر: ابن منظور، 2003، لسان العرب، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، مادة (نبر) 5 / 221 . 222 وأحمد، رضا، 1959، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 5 / 383
 34. محمد حسين، آل ياسين، 1980، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، ط1، ص 457 وينظر: إبراهيم أنيس: 1971، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، ص 97، وينظر: بارتيل مالبرج: دت، علم الأصوات، دراسة وتعريب: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، المنيرة، مصر، دط، ص 187
 35. عبد السلام، المسدي، 1986، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، ص 265
 36. المرجع نفسه، ص 265 . 266 نقلا عن: ابن سينا، فن الشفاء . الخطابة . ص 223 . 224
- *الفعل منسوب إلى الغائب المعلوم ويخص كل من يتكلم

- *يعني أنّ النبرة أو النغم يكون لهما وظيفة إبراز الجمالي الصرفي. ينظر: عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، 266
37. عبد السلام، المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 266 نقلا عن: ابن سينا، كتاب الشفاء . الخطابة . ص 198، و الموضوع في لغة المناطق هو المسند إليه في عرف النحاة و المحمول هو المسند.
38. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (نغم) 452/5
39. أحمد، مختار عمر، 1997، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، دط، ص 229
40. كمال، بشر، 2003، فن الكلام، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، دط، ص 262 . 263
41. بارتيل، مالبرج، علم الأصوات، ص 209
42. أبو الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير 2/ 1071
43. محمد إسحاق، العناني، 2008، مدخل إلى الصوتيات، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، ص 96
44. أبو نصر الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، 2 / 1171
45. المصدر نفسه، 2 / 1179
46. ينظر: ألفت، محمد كمال عبد العزيز، 1984، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، ص 264 نقلا عن: ابن سينا، الخطابة، ص 197 . 198
47. كمال، بشر، 1980، علم اللغة العام . الأصوات . دار المعارف، مصر، دط، ص 189 وينظر: بركة، بسام، دت، علم الأصوات العام . أصوات اللغة العربية . مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، دط، ص 100
- *يعني أنّ النبرة أو النغم يكون لهما وظيفة إبراز الجمالي الصرفي. ينظر: عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 266
48. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 266 نقلا عن: ابن سينا، الخطابة، ص 198
49. ابن رشد، 1967، تلخيص الخطابة، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، الكتاب الرابع عشر، القاهرة، دط، ص 524 . 525

